

فراار الصالح

أَبُو جَنْدَلٍ السَّيْهِيُّ عَمْرُو
لِزُؤْءِ سَاوَسْكَرَى فَيَسَنَ

— — — — —

جلس أبو جندل بن سهيل بن عمرو في غرفته ، وقد طنى الليل على مكة ، فلفها برداء من الصمت والسكون ؛ فما تسمع فيها إلا همسات الريح ، وحديث النجوم ؛ وحفيفاً خفيفاً تبعته أشجار النخيل من أعماق الوادي ، كأنها بث للشكاة ، أو نجوى الحيين واستسلم الفتى الجري إلى نفسه ؛ وأسلس قياده إلى الذكريات تحمله على جناحيها الرقيقين ... فتخرج به من هذا الأسر الذي أراده له أبوه ، واضطره إليه ، لتطوف به في دنياه الحبيبة من الأرض ، حيث يشرق النور ، وتشتع الهداية ، وينزل الوحي ،

علينا أن نداوى هذا الانقسام الداخلي أولاً ، فإذا أحرزناه سعينا إلى الاتحاد الخارجي

لقد كان من شرور الحزبية ما سمعتم أولاهها وشاهدتم أخرهاها ، حرب وانتقام ، وكراهية وانقسام ، وإغداق على الشيع والأنصار بالناسب والألقاب ولو كانوا غير أهل ، وحرمان للآخرين ونقمة عليهم ولو كانوا من ذوى الكفايات

من طواع العصبية الحزبية فانظروا إليه شذرا واعلموا أنه داعى فرقة وانقسام ؛ أنظروا إلى الحزبية كما تنظرون إلى الداء المهلك للبيد ، والشر المالحق المبير ، إنها قطعت أوصالاً وشرقت شملاً ، وزرعت أحقاداً ورفعت جهلاً ، وأقصت علماء وقربت جهلة ، إنها أبعدت المصلحة العامة وأدنت المصلحة الفردية الحقيرة الزائلة حرموا ما يقوم النظر الحزبي ، كما حرم الإسلام النظر القبلي ، وكونوا أفراداً من أمة لا شيع من أحزاب

الإيمان والاتحاد

خطوا عليهما يا قوم مجدكم ، وارفعوا بهما مستقبلكم تتجدد المعجزة مرة أخرى « وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون » . محمد هرف

ويمش النبي الكريم في طائفة من المهاجرين المجاهدين ، والأنصار المدافعين ، والسحابة الذين آمنوا بهذا الدين ؛ فوهبوا دمهم له ، وهجروا عشيرتهم من أجله ...

وعرضت لعينيه صور ، وتدافعت في نفسه أخيلة ؛ واتقد في قلبه الحنين ؛ ... وبكى ... بكى لأنه بعيد عن رسول الله ؛ ... وأين منه يد رسول الله تمسح آلامه ، وتبارك إيمانه ، وتشتع في قلبه الراحة والهدوء ؛ ... إن بينه وبينه لأماًداً بعيدة ؛ ولقد صدوه عن هجرته إليه ، وأقاموا من دونه الأرصاء والرقباء ؛ ورموا به في هذه الثرفة الضيقة ، لا يملك أن يخرج منها أو ينصرف عنها وتناثرت دموعه على خديه ، كقطرات الندى الناعمة ... فبللت الشمرات البعثرة على أطراف وجهه ، وفي أسفل ذقنه ، على غير نظام ، كالنبت السائب ...

ومضى في هذه التأملات العميقة ، واستغرق فيها ... وعاش ساعاً من الزمن ، في دنيا الذكريات ، وظلال النبوة ، وعبق الإسلام ... وأحس النشوة تجرى في عروقه ، وتسرى في دمه ، ورفع بصره إلى السماء ، يسأل الله العافية في دينه أن يفتنه عنه أهله وذوو قرياء ...

ولم يطل به هذا السكون ، فقد سمع حركة خفيفة في صحن الدار ؛ فقام يسترق الخبط إلى النافذة ... فإذا فتاة في ريق الشباب ومقتبل العمر ، تشق ظلام الليل بإشراقها الرائعة ، فيرى لعينها بريقاً ، ولجبينها وضاءة ، وإذا للفتاة تناديه ، وإذا هو يتحسس في صوتها صوت أخته ، فيقبل على الباب يفتحه ؛ وما يلبث أن يتبينها حتى يرتقى بقلبها ، وترتقي تقبله ، في حنان الأخوة ، واتقاد العاطفة ؛ وحماس الحب

لشد ما كان يذكرها في أيامه ولياليه ! ... فقد أنس ألواناً من وفائها الحنون ، وبرها الجليل ؛ حين كان يشهد عليه أذى أبيه ، سهيل بن عمرو ، فيدفع به إلى رمضاء مكة ؛ في لُحَب الظهيرة واشتداد الهجرة ، مع طائفة من المستضعفين يكتونون باللظى المشوب ، ويلتئون فوق الرمل المكروب ، ويدوقون أصناف المذاب الأليم ، ليرتدوا عن هذه البدعة التي ابتدعها محمد ، فما يزيدهم ذلك إلا إيماناً فوق إيمانهم المتيد ويجلس إليها ... وباقى إليها برأسه ، فتمر عليه يديها

إلى مكة، ومهم ينادى: «الله أكبر»... ولكن أخته لا تلبث أن تضع يدها على فيه، تسأله أن يكتم الفرحة الطافرة، وبكت الصبيحة الطافرة؛ ويخفي هذا المرح الشديد... فما يرضيه أن يسلط عليها مهيل أبوه سوط العذاب ويتظاهر أبو جندل بالخضوع للرجاء، ويتمنى عليها بقية الحديث، ويسألها:

— وماذا فعلت قريش يا أختاه؟

— لقد خرجت حين سمعت بمسيره بالموذ المطافيل قد لبسوا جلود النور، وقد نزلوا بذى طوى يماهدون الله لا يدخلها عليهم أبداً، فلما رأوا أن النبي قد خالفهم عن طريقهم رجسوا منذ أيام إلى مكة، واستقبلهم الناس في فتور، وما أدري ماذا صارت إليه خيل قريش يا أختي... لقد كانت زاهية نفورة، تقرأ في وجهها النصر، فإذا هي اليوم كالحلة كابية، ليس لها ذاك الزهو، ولا تلك الإشرافة النيرة... ترى ألسنتي في أن ذلك هو أول الانحلال ومبدأ التراجع، وطلائع الفتح المبين الذي ترقبه من بعيد؟

— بلى يا أختاه... لينصرن الله محمداً ودينه... ثم ماذا كان؟
— لقد أوفدت قريش رجالها إلى النبي تستوضح نيانه، وتتفهم غايته، وتسبر أغواره... ولقد رجع هؤلاء الرجال يلهجون بذكر محمد ويقولون إنه «كسرى في ملكه، وقيصر في ملكه، والنجاشي في ملكه، وأنهم لم يرو ملكاً في قوم قط مثل محمد في أصحابه» ويتحدثون عنه أروع الأحاديث، ويكبرون حجته، ويخشون قوته، ويمجبون بيانه... فلقد قال لبديل ابن ورقاء حين جاءه مع وفد من خزاعة: «إنه لم يأت يرد حرباً وإنما جاء زائراً للبيت ومعظماً لحرمته» وأقبلت علينا خزاعة تقول: «يا معشر قريش، إنكم تعجلون على محمد. إن محمداً لم يأت لقتال» ولكنك تعلم غيرة قريش، وهذه للعصية التي تمصف في نفسها، وهذه الحمية التي تتأجج في صدرها، وهذه الزعامة التي تنبأها من العرب. وقد خشيت لذلك أن يتحدث الناس فيقولوا إن محمداً دخلها عليهم عنوة... فلم يطأوا إليه، ولم يسكنوا إلى غايته البريئة؛ فاتهموا وفد خزاعة وجهوم... ورأيهم اليوم يتداولون الرأي، ويتبادلون الشورة، ويمقدون

الناغمين، تهدهد أحزانه، وتكفكف أشجانه، وتبعث فيه العزم ويسألها عن أبي بصير عتبة بن أسيد بن جارية، وعن أم كلثوم أخت الوليد، وعن فلانة وفلان، عن جيرانه وإخوانه... هل ثبت الله أقدامهم، فصبروا على العذاب، وصمدوا للفتنة؛ وسكتوا على الإهانة؟... ويستنطقها خبر «يثرب» والنبي؛ وهذا النور الذي يغالب الظلمات، ويكافح الضلالات ويخترق السحب... ما شأنه؟... ألم تلح سناء في أفق مكة؟... ألم تر بريقه في سماء البيت الحرام؟... ألم يبلغ بمد هذا الوادي غير ذى الزرع؛ فثبتت في حفافيه الإيمان؛ وينشر في أجوائه الرحمة؛ ويفجر من حجارته الصلابة القاسية بتاييع الخير والحكمة؟...

وتتحرك نفسه لهذا الأمل الخاطف يلح في خاطره، وهذه الأخيلة الفاتنة تداعب روحه الحزين، فيهتز هزة الوائى الطمئن ويتحرك... فتسمع لحركته أصوات الأغلال في رجليه... فتذعر أخته، وتملكها الخوف، وتخشى أباهما أن تصل إلى سمعه هذه الحركة في هدأة الليل، فيكشف من أمرها، ما أخفته عنه وتطلب إلى أخيها أن يستقر في مكانه فإن لها معه لحديثاً؛ وإن الكلام ليتدفق في فمها فلا تعرف كيف تبدأ

وينصت أبو جندل إلى أخته، وقد أحس هذه الكلمات تنوذب على شفقتها؛ وأدرك أن وراء هذه الزيارة المفاجئة في حلقة الظلمة وامتداد الليل لأمرأ جلالاً... فعمل الله جاعل له فرجاً... ولعل السماء قد أنصتت إلى صلاته الخاشعة في ساعات النسيمة الهادئة وتلفتت أخته هنا وهناك... كأنها تخشى الرقباء؛ ثم تنهض إلى النافذة، وتلقى نظراتها النائمة على غرف البيت وصحن الدار، وتجلس لتحدثه في همس رقيق:

— إن مكة يا أختي لتنام منذ أسبوع في مهاد من القلق، وإنها لتتقلب على الشوك... فما تدري ما هي صائرة إليه... لقد نعى إليها أن محمداً غادر المدينة «وأنه استنفر العرب ومن حوله من أهل البوادي من الأعراب ليخرجوا معه»؛ وأنه سار نحوها في سبعمائة رجل... يقول إنه يريد زيارة البيت... فما تصدقه قريش في دعواه

وتنبسط أسارير أبي جندل... وتغلا شفقتيه ابتسامة عريضة وتنوذب الآمال في صدره؛ وتترامى له هذه الجموع في طريقها

المجالس . فهذا أبوك يذهب إلى أبي سفيان ؛ وهذا أبو جهل يسير في وقعة الظهيرة، فيقتل من بيت إلى بيت، وقد ركب الغم وغشاها القلق، وعلت جبينه كآبة المغموم

— يا للبشرى يا أخت عبد الله^(١) ! من لي بجناحين أطير بهما من هذا الأسر ... فأكون مع النبي في عمرته وزيارته ؛ فأين هو الآن يا أختاه ؟ ...

— إن محمداً وصحبه في « ثنية المرار » يا أبا جندل ... وإلهم الآن إلى جانب تلك الشجرة^(٢) الضخمة القائمة هناك ... ألا تذكر لقيانا إياها في البكور والأصائل ... والتجاءنا إليها في الظهيرة والضحى حين كنا نمر بها في طريقنا إلى الوادي ... صغيرين قسم باللات، ونقدس المزى، ونعبد الأصنام ... ! لقد وهبنا الله عقولنا، وبث فيها النور، ... فأمكننا ... ولن يضيع الله إيماننا يا أخى ... وسنجتمع إلى النبي، وسنصلي معه، وسنقرأ القرآن ... وما أحسب إلا أن وثنية مكة تنضيف للأفول ... وأن ظلامها سيدنجا ... وأن جبالها ستطفح بالنور الذي يملأ الأرض ...

فلقد اضطرب فيها الأمر فقام الخليل بن علقمة سيد الأحابيش يهدد قريشاً فيمن يهددها، ويقول في البيت الحرام بملء فيه : « يا معشر قريش ... والله ما على هذا حالناكم، ولا على هذا عاقبتناكم، أيعذ عن بيت الله من جاءه معظماً له ... والذي نفس الخليل بيده لشخصن بين محمد وبين ما جاء له، أو لأنفِرَنَّ بالأحابيش نفرة رجل واحد ... »

— وهل خضعت قريش لهذا التهديد ؟

— إن قريشاً لا تدرى ما تدع وما تأخذ يا عبد الله ... وهي منقسمة مختلفة فيما بينها، لا يستقر لها رأى، ولا تستقيم لها خطة ... وهذا (أبان بن سعيد بن العاص) يجير عثمان بن عفان رسول النبي، وقد وصل مكة اليوم ... وصالحته عيناه أرضها بعد هجرة سفوات، وجاء يبلغ رسالة محمد إلى أبي سفيان وعطاء قريش ... فتحبسه قريش عندها، وتمقد ندوتها ...

(١) الروايات مختلفة في اسم أبي جندل، فبعضها يثبت له اسم عبد الله هذا كما في الجزء الخامس من أسد الغابة، وبعضها يجرده منه ويكتفى بكنيته كما في الطبقات الكبرى لابن سعد

(٢) هي شجرة الرضوان حيث بايع النبي أصحابه على الموت - أو هدم الفرار كما في رواية ثانية - حين بلغه خبر مقتل عثمان رسوله إلى قريش .

ويخرج أبوك منذ الصباح المبكر ... فلا يعود إلا مع الشعاعات التي كانت تودع المدينة، لتنام في أحضان الأفق ... ويدخل غرفته لا يكلمنا ولا يتحدث إلينا ... ويستدعي أمك يطلب إليها أن تسرج فرسه، وتجمع بعض متاعه، فهو مسافر غداً إلى النبي في ثنية المرار

— وتنتصب الفتاة قبل أن تنتهي من كلماتها الأخيرة ... ويتطلع إليها أبو جندل، فيرى وجهها من جديد على أنوار القمر المشيلة التي اخترقت النافذة العتيقة، فيود لو أنها بقيت إلى جانبه تؤنس وحدته وتطرد وحشته ... ولكن الليل مضى إلا أقله ... وهذا غيش الفجر في طرف السماء، وما من شك في أن أباه سيبتدر الصباح، وسينمض مبكراً ليبلغ النبي قبل أن ترتفع الشمس ؛ وقد يمر به ويتفقدته قبل غدوه، فليحرص على ألا يرى أثر أخته عنده ...

وتقترب الفتاة من أخيها ... وتلامس شفتاه جبينها الوضاء ويطبع عليه قبلته كأنما يشكرها فيها هذا الحديث الشاق، وهذه البشرى الحلو ... ويهم بتركها لولا أن عارضاً مر بخاطره ... لم لا يهرب من الأسر ؟ ... إن أخته تستطيع أن تمينه بما لها من حيلة، وإن فيه لبقية من عزم لم تأت عليها هذه القيود، وإن في قلبه لإيماناً يدك الجبال ... وإن كبده الحرى ليذيقها الحنين إلى النبي وإلى الجهاد ... وإن أباه ليسافر غداً ؛ وستزاح هذه الذمة الثقيلة التي تظلل سماء فتفيض فيها الكآبة والمبوس وتضخ هذه الفكرة في رأسه وتتكامل صورها وأجزائها ..

— إن النبي قريب من مكة، فليمض إليه وليسع نحوه ليجد في كنفه الراحة والإيمان والخلاص

ويهمس في أذن أخته هذه الكلمات ... ويسألها في ضراعة ورجاء أن تمينه ؛ فقد سئم هذه الحياة الصعبة وهرم بالقيود الثقيلة، وإن الله لمنجي ... والنصر قريب فلن يلحق بها هي عذاب ويديتان الأمر ... وتنصرف إلى غرفتها، وينصرف إلى فراشه ... وينام ... ملء عينيه الأحلام المخضلة، وملء رأسه الأمانى الندية

صالحاً ، وأعطيتهم على ذلك وأعطينا عهد الله وإنا لا نقدر بهم »
ويحافظ الجزع قلوب المسلمين ، وتمتلكهم الروعة ؛ ويدخلهم
الهم لصير أبي جندل ... ويقف هذا الشاب يتفرس في الوجوه ،
وقد اطمأن إلى وعد رسول الله الذي لا ينطق عن الهوى ...
وترامت له أيامه القرية الغر ، وقد انفلت من الأمر ، وانضوى
تحت راية الجهاد ... وتبرق في نفسه بارات الأمل ، وينصرف
بمد أن يقبل يد النبي ، ويدس رأسه في صدره

ويثب عمر بن الخطاب إلى جنبه وهو يقول : « إسبر
يا أبا جندل فإنا نعلم المشركون ، وإنا دم أحدهم دم كلب »

ثم لا تكون إلا لحظات ... حتى يغيب الليل في برده الخالك
هذا الفتى الصابر ... فترتد عنه عيون الصحابة ، ولكنهم تظل
تفكر فيه ، وتتبع خطوه ، وتتساءل عنه ... ويسير هو إلى مكانه
من البيت ، وإلى موضعه من القيد ، وإلى عذابه من المشركين
(القاهرة) شكرى نبعل

عامرلوا

مكتبة الانجلو المصرية

٣٣ شارع نصر النيل . مصر تليفون ٥٠٢٣٧

فهي المكتبة الوحيدة التي ساعدت على نشر الثقافة
بين أبناء البلاد

بأسعارها

كل جديد من الكتب العربية والانكليزية والفرنسية
علمية كانت أو أدبية . وهي ترصد حركة التطور العلمية
فتحمل إلى الشرق ما أخرجته الأفكار الجبارة من رجال
العلم والأدب في الشرق والغرب

أسعارها منزهة ومحددة

وفي أصيل اليوم التالي كان النبي صلوات الله عليه في مجلسه
مع سهيل بن عمرو ، وبين يده علي بن أبي طالب يكتب صلح
الحديبية ، وإلى جانبه أبو بكر وعمر وعبد الرحمن وسعد ؛ وقد
تناثرت في السماء قطع من السحاب الخفيف كأنها حمامات السلام
البيضاء ... وغشى الأفق لون وردى جميل من أثر الشمس
التضيق ، وكان يحس الناظر في جانب من جوانبه كتلة نور
لا يستطيع أن يحدق فيها ... والنسيم يروح خفيفاً هيناً يحمل
السلام إلى كل نفس والهدوء إلى كل قلب ... وجماعات الصحابة
تقوم لوضوئها ، وتستعد لصلاتها ، وتنعم بهذه الهداية الخالدة

في تلك الساعة سمع الناس جلجلة قيود ، وأصوات أغلال ؛
وأبصروا ... فإذا شبوح لا يبين ... حتى إذا اقترب رأوا فيه
« أبا جندل » يرسف في الحديد ؛ وقد انفلت إلى رسول الله صلى الله
عليه وسلم يطلب في جواره الأمان ، ويرجو السلام ، ويبنى الحياة
لله ورسوله ... فيقبلون عليه بقلوبهم وأفئدتهم ... وعيونهم
تفيض من الدمع

ويدرك النبي الكريم كل شيء ؛ وينتفض انتفاضة لا يحسها
غير أبي بكر في جواره . فقد كان نفذت منه قولة : « هذا ما عاهد
عليه رسول الله سهيل بن عمرو ... » فإذا هو فاعل في أبي جندل ؟
ويرى سهيل ابنه أبا جندل ، فيقوم إليه « بضرب وجهه
ويأخذ بثلبيه » والمسكين ينظر إلى رسول الله وينادي : « أأرد
إلى المشركين بفتنوني في ديني ؟ ... »

ويخفق قلب النبي الرحيم وتعطف عيناه ويشبههما الدمع ؛
وينمض جفنيه يحبه أن يتذرف ، وتترامى له في هذه الإغماضة
الخفيفة أنوار « جبريل » ، وتنتشر من أمامه صفحات المستقبل
ويبرز له يوم الفتح القريب وقد أقبل « سهيل » يطلب جوار ابنه
ويحتض به ، ثم تعرض له صورة سهيل بعد ذلك « كثير البكاء ،
رقيقاً عند قراءة القرآن » وتظهر له الجنة في خاتمة هذا الطواف
وأبو جندل وسهيل أبوه إلى جنبه ، قد خرجا من الدنيا شهيدين
فيسرى عنه ، وتحالط أحزانه ابتسامة حلوة ، ويتمم بكلمات
صامتة ، ويقول :

« يا أبا جندل . اصبر واحتسب . فإن الله جاعل لك ولن ممك
من المستضعفين فرجاً وخرجاً . إنا قد عقدنا بيننا وبين القوم